# آخر الموريسكيين

• (قصيدة): غــازي الــذيبــة

النهر يرقصُ والرمان يرتجفُ
وتينُ صوتكَ مخنوقٌ ومختلفُ
والناي .. يا للناي
في غرناطة الأحزان معتكفُ

***

أيقظتكَ
كان السيف قصيرا
كان البارود على (جبل البشرات) ينامْ
كان الليل بلا عَتْم يستيقظُ من وحشتهِ
كان (الدون خوانً) يبحث عن (حبقي)
يجرف لوعتهُ منذ معاوية بن أبي سفيان
حتى آخر نسل الأمويين بـ (غرينادا)
كان الدمع قصيرا
وتماما مثل يدٍ تقطعها الغفلة
وتثيرُ غوايتَها بالطعناتْ
كان (إيرناندودي بالور)
أو عبد الله ابن أمية في كتب النسيان
يوقظُ سربَ إوزٍ في الغابات المسلوبةِ
ويطيرُ على شرف الطعنة في الظهرْ
لا يصل النهرْ
لكن الماءَ
يحفن من كفيه ويسقي طيرَ الحزنْ

يرفعهُ فوق الجبل الضاري بجناحيّ نسرْ
فتدقُ عقاربُ ساعتهِ الرملية أبوابَ القهرْ
حتى يصرخَ
حتى يرفعَ في حِدتهِ قامةَ سهلٍ منهوبٍ
فتفيضُ الخضرةُ في كاتدرائياتِ الموتْ
وتضيءُ منابتَ أجنحةٍ طارتْ
فوق جبال الله وتحت غيوم الصمتْ
تبحث عن كُنْه القتلى في عرس الليلْ
فإذا بزغت أنفاسُ القادم من أطراف الذلْ
كان النزفُ مديدا
وحكايتهُ سرٌ ما زال يرفرف في شهقتهِ
ويفتتُ أسماء العرب الأولى
في (بواتييه) المحروسةِ بالخذلان

***

النهرُ يبكي والدموع دماءُ
والمنهكونَ من الحروب مع الحروب هباءُ
والصوتُ .. يا للصوتِ في لجج الذُرى
آهٍ تردُ آهَهَا العلياءُ

فأسكنْ رياحكَ
خُذها من دمع العين إلى دمع البحرْ
واسقط في لجة بئرٍ مرتبك الثغرْ

# آخر الموريسكيين

غــازي الــذيبــة

اسقط في اللعنةِ
انهض بعد قليلٍ من موتِكَ
سيكون الصمتُ على ما ظل من الساعات أمام يديك
إكليلٌ من زمن النصرْ
وستكون (جبال البورجراس) نهاية هذا العالم
وسيأتي كولمبوس بمصاحفِ بحارتهِ
والإسطرلاباتِ الملكيةِ
والسفنِ المشحونةِ بالديزنطاريا
وشيوخِ (لا غالب)
والنزواتِ الذهبيةِ
و(بورتوريكو)
سيكونُ المهوى في غفلتهِ خيبة دهرْ

***

انهض يا إيرناندودي بالور
اضبط ساعتكَ الرمليةَ عند العصرْ
ولا تترك من كان يَعُدُّ أصابعهُ في العتمة
أو يصفن في قبس من ضوء التيه إذا جاء الفجر إليك
وإذا مرت في الويل عليك بنات الغرناطيين
وإذا انسل إلى خيمتك الملكية أولاد الاستسلام
انهض وستدع الظلَ وأبناءَ الظلِ
وما يُعتِقُهُ الخوفُ من القتل
واخلع اسمكَ من شجرة أنساب الريح

وحدِّق في غبش الصبحِ
فهنا ..
من عند السور العالي
من باب مدينةِ أجدادِك
تسقطُ هامتُكَ المشدوهة بالنهرْ
ليطاردها حراسُ البابا في روما
وغواياتُ العثمانيين بفتحٍ يأتي بعد (وإذا جاء)
انهضْ ..
فالقلب صغيرٌ جدا
لا يحتملُ النبضَ الهاوي في اللذة
والقلبُ صغيرٌ جدا ..جدا ..
لا يحملُ سيفَ الضالعِ في منفاه
والقلبُ على شرفةِ رمحٍ مكسورٍ ما زال خفوقا
مشنوقا يتهاوى في صعقته
يرتفعُ قليلا في مرقى أسلافِكَ
ويُعدِدُ للتاريخ مناقِبَهم
اذهب في نصف صلاتِك للنور
شاهد موتكَ بيديك
وراقب ثوارَكَ ينتشرون على الأطلال
وتمدد وحدكَ في ساعة غيبْ
سيكون عليك إذن أن تأوي في هذي الحرب
لحربٍ لا تؤويك

# آخر الموريسكيين

غــازي الــذيبــة

وستبقى مثل الفصح نبيا مجرورا بالأغلال
وستبقى تحت غلالةِ ضوءٍ تنتفضُ قُبيلَ شروق القمح
وتؤرجح قلبك كنشيد قمري
يخرج عند الفجر مع الثوار إلى ساحات الذبح
وحين ستلقي ساعتُك الرملية بعقاربها نحو يديك
سترتفع الغُنَّة يا عبد الله
وسيشهق هذا المنفى في الأحداق
سيصير بلادا أضيق من معناها
وسفوحا لا تقرؤها العين بلا دمع
وحرائق تسرق منك الآهات
على أطراف حقول الذبح

***

مطرٌ وروما لا تنامْ
والحزنُ يا للحزنِ يسرقهُ الغمامْ
وجنودُ ربكَ إذْ يمرون
وقفوا على أطرافِ روحِكَ
يجهشون بلا كلامْ

***

في قلبِ الحرب
كان ابن أمية يسكنُ في كتب التيه
في قلب الحب
كان ابن أمية يرجم شيطانَ القصرِ المعتوه
ويُصلي في وحشتهِ
ويقاومُ في وحشتهِ
وينادي من أعلى جبلِ البشرات
( حي على الثورة .. حي)
...
...
في قلب الطين
خفقت رايات المنهزمين
كانت تتربصُ بجدار الليل الهاوي
تحمله أحجار نهايته فوق رؤوس بيادقها
تقتنصُ غوايتهِ الأولى
وتلاقيهِ وحيدا في طعنتهِ السريةِ
كانت أسماء القتلى مغفلة
لكن الدم على شرشف سيرتك الملكية كان،
مرتجفا يرقص في الأنات
وكانت جذوته نبضاً مسروقاً من غرناطة
وقذالته قنديلاً يشعل ضوءا
قمرا
نزفا أمويا
يستحضر أولاد العباس
وبقايا اللهفة في وطن مكسور القلب
كان النهب
ظلا يتطاول في مرماه
ويكسو صوتك بالخسران
...
...
وقبيلَ تقدم شاعرك المنسي
وحضور الخمرَة في أشعار العشاق
وذهول الصورة وهي تنز من الكأس أمام حفيدك (لوركا)
رقَّصت قيثاراتُ الغرناطيينَ
وتوهج صوت يخرج للتو من الوديانْ
رقصوا مُنتَهَبينَ بوزر صكوك الهذيان
جاؤوا ليوارَوا بعناق أميرات اللوزِ
وأطواقِ الوردِ المشنوقة بالخفقان
...
...
وهناك
يبزغُ عبد الله المغدورُ جريحا
ينهض في ليلكه المنثور على الآهاتِ وحيدا
يلبس بزته الملكية
وعلى كتفيهِ نجومُ الجنرالاتِ المنكسرين
وفي عينيهِ جنوحُ الثوارِ وخفتهم
ورشاقةُ أيلٍ مخفورٍ بجنونِ الصيادين
يتمايل عند حواف النهر
مسكونا بالتوق إلى أعلى من هذي الذروة

# آخر الموريسكيين

غـــازي الـــذيبـــة

محفوفا باسم الله ..
يتمايل حتى يغدق بعطاياه
ويوزع آخر أبناء الموريسكيين على ضيعته
ثم يحدق في طعنته
يترنح ثملا بالكلمات المصفوفة في قلب الماء
ويلوح بيده عن الأسوار
(حي على الثورة .. حي)
حي على الثوار

***

أيكونُ عليكَ الموتُ وحيدا يا عبد الله
ويكونُ على الملحِ بأن يُنثرَ فوقَ جنازتِكَ السريةِ
في أبهاءِ غرينادا كأميرٍ مغدورٍ
يشتعلُ بسهو البحرِ
وعلى جبهتهِ آثارُ السلبِ
ونبلِ الفرسانِ المخفورينَ إلى حتفِ رجولَتهم
فوق الأنهار

***

أيكون لروحِك أن تذوي
ولحزنِك تلكَ الرقةُ في الطيرانِ وفي التحليق
فإذا شئتَ ستأتيكَ الريحُ
لا تركض في برِ المغدورين وحيدا
نحن سنأتي في الليلِ الأليلِ كي نأويكَ
ونمنحُكَ بقايا عِفتنا
لنحاربَ روما في زمن يقبلهُ التاريخ على عجلٍ
ونُعدُ لنصرٍ لن يأتي إلا بحراسةِ روما
وحمايةِ روما
وعِرافةِ روما
وعلى عجلٍ سنقودُ غمامَ الذُلِ
فلا تركِن للتاريخ إذا مر عليكَ
ومرِّغ بالورق الأصفر نسيانَك
لا تجعل من خفق الريح هنا تتهشم فيك
لا تقفز وحدك عن أعلى التل
فالدينا .. كل الدنيا غرناطة

والثورة قلبك
والثورة اسمك
والثورة يا عبد الله قريبا تخرج من قمقمها
كي تعطيك الظل

***

وقفتْ على أطراف حُزنِكَ
رجفةُ المعنى وغابتْ
وعلى مداك النارُ خيلٌ صافناتٌ
والآهُ ذابتْ
والأمنياتُ كما تودُ
لكن روحَكَ لا تَمدُ لها يدا
والخيلُ في ذلِ الرجوعِ إليك آبتْ

***

قلت لإرناندوي بالور : توقف
خذ حجرا من بركة نومك
واهدأ
اهدأ في الصمت
اهدأ في الموت
دع صدرك يشخب بالدم
ويعلّي غبطته فوق الغيم
قلت له نم
وقريرا في هدأة روحك ..
في نزفة بوحك
في خفقة قلبك
نم
الوقت مديد حتى تسترجع فكرتك الأموية من ماء الوهم
وتعود إلى عرش الأجداد
على فرس الهفوات خفيفا كالسهم
وتردد في ملكوت الإثم
بأن عظامك لم تك جسرا يعبره الحبقي
ولا الكذابون وأبناء العم
قلت له استيقظ بعد غروب الشمس
وقبل ولوج الخنجر في صدرك بالسم
فاستيقظ..

# آخر الموريسكيين

غـازي الـذيبـة

استيقظ حتى سقطت في كفيه
دروب النجمات
وتوقف فيه النبض
وترجل عن خيل الوهم
كانت غرناطة ساكتة في معناها المختلف عن المعنى
كانت أحبال مآذنها الصوتية تتصدع خلف الجدران
كان الهذيان رفيقا بالهذيان
يتحلى بتويج الزهرة في طرف قميصك
كان الظل المتعالق فوق الأكتاف لحزنك
مشحوناً بأنين الصبح
كان الفتح
مجرورا خلف ظلال القبح

***

وهناك ..
قربَ غوايتهِ
قربَ الجرسْ النازف في الإيقاع
أطيافُ قراصنةٍ يهوون على مهلٍ
ويَعدونَ خُطاهُ على مهلٍ
ويجوسونَ تأرقَ جبهتهِ العاليةِ على مهلٍ
ويدُقونَ غمام الرهبةِ في سوق النخاسينَ على مهلٍ
ويُذيعون سرائرَ جذوتهِ في البوحِ على مهلٍ
ويَغطونَ إلى آخر نفسٍ في الموت على مهلٍ
ويذوبونِ مع الشمع التائه
يرتجفونِ من الظلمةِ في بحر الظلماتِ على مهلٍ
ويجوبونَ بحارَ الدم ولا يستمهلم مهلُ
وهناكَ تمرأى فيَ صورتهِ الجذلُ

***

أرنو لمعناك الكثيرِ

أُقللُ الكلماتِ كي لا أدعيكَ
تُرى اصطفيتُكَ
أم تأخرَ صوتُكَ الغافي على كتفي حمامة

أرنو لمعناكَ المعتّق في شهيقِ الحزنِ
في صفو الغمامة
الله أكبر يا شقيُّ
كيف تُلقيك النصال على النصال
وكيف تمنحك الإمامة

***

كان كثيرا كالحبِ
وكثيرا كالنزفِ
وكثيرا كالحنقِ
كالغضبِ الطالعِ من سطوةِ جني مسجون
كالألفِ المدودةِ كانَ
يتمايلُ تحت الحبلِ
ويُعدِّلُ ياقتهُ بسلامٍ واطمئنان
ويسيرُ وحيدا
لم يلمحْ أحدا قُربَ هلالِ الهالةِ
لم يستشعرْ غير نشيدٍ يصعدُ من فُوهةِ البُركان
لكن بصيصا من رِقةَ أطفالٍ ترقصُ كهيولى حول طهارتهِ
كانت تتوارى في الصورةِ
لا يبصرها أحدٌ في الغثيان

***

فإلى أي الطعناتِ ستؤوي
وعلى أي جبالٍ في مدنٍ خطفتها أيدي المرتزقةِ

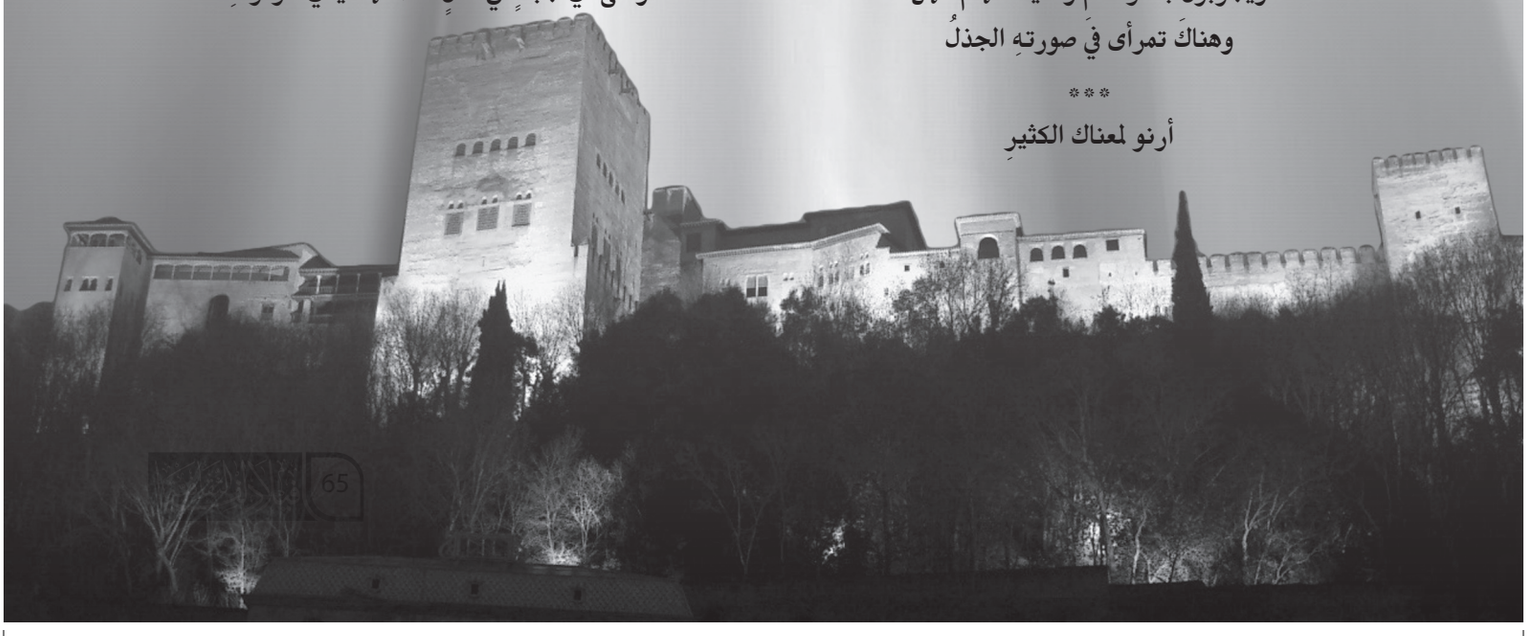

# آخر الموريسكيين

غـــازي الـــذيبـــة

ستُعلِقُ عُنقا ممدودا كالحبلِ أمام الله
وبأيِ كلامٍ ستبوحُ وحولُكَ غيلانٌ تلتحف بآيات الله

***

وهناك تَفرست الخيل ملامحُهُ
وتسربلَ في أعطافِ سنابِكِها مُهرٌ مذبوح
مهرٌ سكنتهُ اللوعةُ والنار
كان يفتشُ عن فرسٍ ضائعةٍ
ومرابط خيل سرقتها الزُرقةُ
فيحاولُ فضَ اللوعةِ
ويحاولُ أن يحملَ في قلبِ غوايتهِ أندلسَ العشاق
ويحاولُ أن يُرشدَ تيه القمر المسفوح
ويحاولُ أن يترقرق في السكراتِ ويذوي
كي تؤوي في نبضتهِ الحرّى
أوهامُ البوح

...

...

وهناك
مرَ المخلوعُ عن العرشِ
آيتهُ سورةُ حزنٍ
ودماءٌ تجهشُ في خُضرَتِها
وحصارٌ يتلوى في قلبِ حصار
كانت عيناه تتيهانِ بوحشةِ ظلٍ مشقوق
والثوارُ قريبا من (جاليرا )
يرتجفونَ من البرد
كانت أشجارُ الرمانِ
تتوردُ في حدقاتِ العينِ
وتمضي في سهوِ الماء
لترى الأطفالَ على مذبحِ قشتالةَ ينتحبون
كانت أسماءُ المسلوبين بلا أسماء
تُحرق في ساحات الموت
وتُوارى خلف مِحفاتِ التاريخ
فتُحلّقُ أطياف السرو على الأرض
وتهبُ رياحُ البغض
من أقصى وقدةِ نارٍ في قلب ابن أمية
حتى أقصى شهقةِ ملكٍ مقتولٍ
بذهولِ النبضْ

***

جرحوا يديكَ
وخلَّفوكَ وراءَ سهلكَ شاسعا
تمضي وحيدا في القفارِ
بدون مأوىً أو حديقة
قطعوا يديكَ
وعلَّقوكَ على الصليبِ بكلِ طهركَ
لم يراعوا صمت موكِبكَ البهيِّ
يمرُ قبلَ الناي في قُدّاسِهِ المشقوقِ بالآهاتِ
لم يدْعوا مُضيُّكَ للحرائق هادئا
أخذوا حصانَكَ
كان يركضُ حائرا
ويمرُ عن بيتٍ تَعلّقَ في الجبال
وكان يندهُ يا جبالُ
أنا هنا
وأنا هناك
ووحدها الكلماتُ تصعدُ نحو جرحي
لم يكن جرحا
وظلَ يهزُ جِذعَ نخلتهِ وحيدا
كان ينزفُ
كان صوتُ الموتِ ينزفُ
نايهُ وكلامهُ ويداهُ
والأفقُ المعلّقُ في الغمام
وكان ينزفُ آية .. ثنتين .. من ريش الحمام

***

ومررتُ من شجرِ العناقِ
مررتُ من دفقِ المساءِ
مررتُ من خبزِ الجياعِ
مررتُ من غرناطةِ الأحزانِ
في وقتٍ رآني فيهِ حُراسُ النجومِ
وعانقوني
أوقدوا شمعا على روحي

# آخر الموريسكيين

غــازي الــذيبــة

وناموا مستريحينَ
ولكني تناولتُ التباسي في الخراب
وسقتهُ خلفي .. وسرتُ
ورائيَ الأمداءُ والشهواتُ والنزواتُ والمُلكُ العضود
ووراءَ حُزني
كان رملُ التائهين يَدلُني
لأرى النهايةَ وهي تمرقُ مثلَ سهم ناحلٍ في الحزن
مثلَ جنونِ أغنيةٍ تفتّحَ صدرُّها للقتل
مثلَ الوعل
يشردُ من عنايةِ موتهِ في البرِ
يشعلُ دمعة عند القفار
ويرتمي في حضنِ غيمتهِ العليلةِ

***

لم يكن بالورُ طفلا
لم يكن بالورُ وعلا
لم يكن بالورُ غير الجرح
في جسدِ النهاية وهي تجهَشُ
ثم تسقطُ فجأةً في موتها المجنون
تسقطُ عنوةً في ظِلها
في جرحِها
وتنام

**

مُدويا كعاصفةْ
كشهقةِ المنكوبِ
كالرذاذِ دمْ
مدويا كنبضةِ العدمْ
يقودُ روحهُ الطليقة
ويصعدُ القممْ
وفي مدى السكونِ
ترتجُ في رحابِ ظهرهِ المديدِ
نصلةٌ مسنونةٌ تفورُ بالألمْ

***

يا ابن الجرحِ
انظر كيف تواريتَ بلا معنىً في الليلْ
وكيف تقطّعتِ الدنيا برجالِكَ في الويلْ
لا أنتَ الطالعُ من أرباضِ التيه
ولا أنت الوعلْ
ويداكَ على رِسْلِكَ ترتفعان قليلا
فارفع صوتَك
سندقُ على بابكَ بعد قليلٍ
لتطلَ على الماء كثيرا
واحفظ اسمكَ في ورق النسيان لكي ننساكْ
يا ابن أمية
لا شيء سيغفرُ للنسيانِ سِواكْ.

**فضيحة الواضح**

- جبال البشرات والبورجراس: معقل ثورة عبد الله بن أمية ضد الإسبان
- إيرناندودي بالور: محمد بن أمية كما كشف عن نفسه إبان إطلاق ثورته
- غرينادا: اسم غرناطة القشتالي
- الحبقي: الخائن الذي حاك مؤامرة لتخريب ثورة جبل البشرات
- الدون خوان: قائد حملة كارلوس الأول لسحق ثورة البشرات في 1572
- جاليرا : معقل الثوار الموريسكيين الأخير .. وفيها انتهت ثورتهم الكبرى
- الموروسكيون : المسلمون الذين أرغموا على تغيير دينهم بعيد سقوط غرناطة
- لوركا: شاعر أندلسي قتل في القرن العشرين وهو سليل الموريسكيين
- بواتييه: مقتلة العرب على حدود فرنسا في بدايات فتح الأندلس
- بورتوركيو : في أميركا اللاتينية، أول من اكتشفها هم البحارة العرب الذين رافقوا كولمبوس للعالم الجديد.